كلمة العدد

من بابل إلى مانهاتن..

بقلم: عزالدين ميهوبي
رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

حين قرأتُ أنّ قاموس اللغة العربية يتجاوز اثني عشر مليونا وثلاثمائة ألف كلمة، ويمكن اشتقاق ما يربو عن 95 مليون فعل، ضربتُ أخماسي بأسداسي، لأنّ المأساة كبيرة عندما يعلم الخلق أننا – نحن العرب– لا نستخدم سوى 0,04 بالمائة من المعجم العربي (..) وهي محصّلة دراسة قمتُ بها منذ عامين حول الأمن اللغوي والحروب اللغوية في العالم، وثّقتها في كتاب ضخم بعنوان "**جنائز اللغات: من برج بابل إلى أبراج مانهاتن**" ويتضمن معلومات وحقائق وأرقاما منها أنّ قاموس أكسفورد الإنجليزي يضمّ مليون كلمة بينها 40 بالمائة تمثّل رصيدا وافدا ضمن منهج الإقتراض اللغوي، أما الفرنسية فمعجمها لا يتجاوز المائة ألف كلمة، وهي لغة مهددة بالانقراض بعد أربعين عامًا إذا استمرّت في التمسّك بمنطق "اللغة النقيّة" التي ستموت اختناقا، بالرّغم من ارتفاع أصوات الأكاديميّة الفرنكفونيّة، المطالبة بضرورة دخول سوق اللغات والاقتراض منها لضمان استمراريّة لغة لاماراتين..

لقد انتشرت في العالم مفردات ومفاهيم جديدة ذات صلة باللّغة، وتحولت إلى عنصر حاسم في تبيان شكل الدولة وهوية المجتمع. وانبرى كثير من الباحثين والمختصين في الألسنية واللّغويات إلى تعقب نشوء اللّغة وانتشارها والتهديدات التي تتعرض لها، وتحديد ظروف انتعاشها أو موتها. ومن بين المفاهيم والعناوين التي طبعت المسألة اللّغوية في العالم بروز ما أطلق عليه "**الأمن اللّغوي**" و"**الحرب اللّغوية**" و"**صدام اللغات**" و"**الهجوم اللّغوي**" و"**التلوث اللّغوي**" و"**الاقتراض اللّغوي**" و"**الافتراس اللّغوي**" و"**السوق اللّغوية**" و"**وضع نظام لغوي عالمي جديد**" و"**موت اللّغة**" و"**لغة الوطن ولغة المواطنين**" و"**التعايش اللّغوي**" و"**لتنوع اللّغوي**" و"**التفاعل اللّغوي**" و"**لحقوق اللّغوية**" و"**اللغات الطبيعية**" و"**اللغات**

المصطنعة" وغيرها من المصطلحات التي انتشرت بصورة واسعة، وبدرجة أخص في البلدان التي تعيش تنوعا لغويا يصل أحيانا إلى صراع بين لغة مهيمنة وأخرى مقاوِمة من أجل البقاء أو ساعية إلى الانتشار.

ولأن اللّغة كائن اجتماعي يولد ويكبر ويشيخ وقد يموت بالهجر أو النّشوز الثقافي (..)، فإن الأبحاث العلمية تتجه اليوم، بعد أن تساءلت عما إذا كانت **اللّغة مخلوقة أو مبتكرة،** إلى دراسة ظاهرة انتشار اللّغة وموتها وكذا وضع ملامح حروب لغوية سرية ومعلنة، وأصدرت بهذا الشأن اليونيسكو عددا من التقارير التي **شخصت واقع اللغات في العالم، ونبهت إلى ضرورة حماية لغات الأقليات، والحفاظ عليها باعتبارها من التراث الإنساني.** وقد تحوّلت الشبكة العنكبوتيّة (الأنترنيت) في السنوات الأخيرة إلى عيّادة لغويّة (..) تعالج فيها الألسنة الآيلة للموت والانقراض، وليس أدلّ على ذلك من وجود أكثر من خمسمائة لغة في العالم متداولة في الأنترنيت، وتحوّلت إلى أداة للتواصل بين شعوب كثيرة، وبدرجة أخص في إفريقيا وأمريكا اللاتينيّة، مما جعل المراهنين على سيادة الفرنسيّة والاسبانيّة يشعرون بشيء من الإحباط..

وإذا كانت كل اللّغات تعيش حالة تفاعل مع التحولات التي يشهدها العالم، فاللّغة العربية عرفت بفعل حرب أفغانستان 2001 التي أعقبت أحداث 11 سبتمبر، انتشارا واسعا لها في كثير من بلدان العالم، وبدرجة أخص لدى الأمريكيين الذين زاد إقبالهم على تعلمها، وأسهم في ذلك قرار الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الذي أطلق في 2006 «**المبادرة اللّغوية للأمن القومي** National Security Langage Initiative»، تدعو إلى ضرورة تعلم عدد من اللغات منها اللّغة العربية التي عُدّت "**لغة إستراتيجية ومصيرية**" لا غنى عنها، لفهم العرب والمسلمين، والحصول على جواب لسؤال محيّر لماذا يكرهون أمريكا؟.

فاللّغة، وإن تعددت المفاهيم، وتنوعّت التعريفات اللسانية والثقافية والاجتماعية والدينية، هي كما يقول الكاتب محمّد سليم "إنتاج اجتماعي لا يتبلور إلا في امتداد الزمن، وهي إنتاج جمعي يتحقق أيضا في الزمن، **ولم يحدث أبدا في التاريخ أن اخترعت لغة، ثم جيء بها للناس وقيل لهم: عليكم أن تستبدلوا لغتكم بهذه؛ اتركوا تلك وتكلموا هذه**". فوجود ستة آلاف لغة أو يزيد، يجعل السؤال قائما، هل البشرية بحاجة إلى كلّ هذا العدد أم تكفيها لغة واحدة؟. هو سؤال مردود عليه، لأنّ العالم اليوم يعيش حروبا بأسلحة مختلفة منها اللغة، وهي عنيفة جدّا وإن لم تظهر للعيان..

وإذا كان بعض الناس متشائمين من حال العربية ومستقبلها، فإنني متفائل، ولي في ذلك ما يبرّر هذا الشعور.. فاللغات اللاتينية تأكل من رصيد بعضها، وتتناطح فيما بينها، بينما العربية بحاجة إلى قليل من الثقة في خبراء أبنائها ليحسنوا استثمار قدراتها، وتدبّر قاموسها الأثرى بين لغات العالم..

وهناك أيضا ما يطلق عليه اللغات المصطنعة، إذ كتب الفيلسوف الفرنسي ديكارت رسالة لأحد رجال الدين في 1629 يقول فيها "**على الإنسانية أن تنشئ لغة دولية، قواعدها بسيطة، يمكننا أن نتعلمها في ساعات، لها إعراب واحد، وصرف واحد، وليس فيها استثناء ولا اختلال لغوي، والكلمات تنساق خلف بعضها إلى حدّ الالتصاق**".

وليس غريبا أن يربط كثير من الكتاب والمفكرين ابتكار لغة الإسبرانتو في السنة نفسها التي أعلن فيها هرتزل عن ميلاد الحركة الصهيونية في 1887، فهل فكرة "**الشتات**" هي التي تفرض نفسها في نشوء **حركة لغوية تهدف إلى وضع شتات لغات العالم تحت مظلة لغة واحدة هي الاسبرنتو**، ونشوء حركة صهيونية لتكون مظلة ليهود الشتات؟

الكلام يطول حول اللغة، إنّما أعجبتني فكرة لمواطن عربيّ قال إنّ لفظة "فأسقيناكموه" الواردة في القرآن، فيها حرف عطف، وفعل، وفاعل، ومفعول أول، ومفعول ثان، فهل هناك لغة غير العربية بهذه القوة؟.